كتاب ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

فصل بيان ذم المال وكراهة حبه:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: ١٥]، فمن اختار ماله وولده على ما عند الله، فقد خسر وغبن خسرانًا عظيمًا، وقال - عز وجل -: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]. وقال ﷺ: «**ماذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفسادًا فيها من حب الشرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم**» [رواه الترمذي، وقال الألباني صحيح]، وقال ﷺ: «**هلك المكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم**» [متفق عليه]، وقال ﷺ: «**دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر**» [رواه البزار وابن حبان وسنده ضعيف]، وقال ﷺ: «**يقول ابن آدم: مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره، والثالث إلى محشره فالذي يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله والذي يتبعه إلى قبره فهو أهله والذي يتبعه إلى محشره فهو عمله**» [متفق عليه بلفظ: «**يتبع ابن آدم إذا مات ثلاثة أهله وماله وولده فإذا دُفن رجع اثنان وبقي عمله**»].

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: «مالك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك؟ فقال لهم: ما منزلة الدينار والدرهم عندكم؟ قالوا: حسنة. قال لكنهما والمدر عندي سواء.

وكتب أبو الدرداء إلى سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يا أخي، إياك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدي شكره. وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم، لأن المال أعظم أركان الدنيا، وإنما نذكر الآن ما ورد في المال خاصة. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا مات العبد قالت الملائكة: ما قدَّم؟ وقال الناس: ما خلّف**» [رواه البيهقي في الشعب] قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا**» [رواه الترمذي وصححه الألباني].

الآثار: روي أن رجلًا نال من أبي الدرداء، وأراه سوءًا، فقال: اللهم من فعل بي سوءًا فأصح جسمه، وأطل عمره، وأكثر ماله. فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء، مع صحة الجسم وطول العمر، لأنه لابد وأن يفضي إلى الطغيان. ووضع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ درهمًا على كفه، ثم قال: أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني. وروي أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها. فقالت: ما هذا؟ قالوا: أرسل إليك عمر ابن الخطاب، فقالت: غفر الله له. ثم سلت سترًا كان لها، فقطعته وجعلته صررًا، وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها. ثم رفعت يديها وقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا. فكانت أول نساء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحوقًا به.

وقال الحسن: «والله ما أعز الدرهم أحد إلّا أذله الله»، وقيل: إن أول ما ضُرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس، ثم وضعها على جبهته، ثم قبلهما وقال: من أحبكما فهو عبدي حقًا. وقال شميط بن عجلان، إن الدراهم والدنانير أزمّة المنافقين، يقادون بها إلى النار. وقال يحيى بن معاذ: «الدرهم عقرب»، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: وما رقيته؟ قال أخذه من حله، ووضعه في حقه. وقال العلاء ابن زياد: «تمثلت لي الدنيا وعليها من كل زينة، فقلت: أعوذ بالله من شرك. فقالت: إن سرك أن يعيذك الله مني، فأبغض الدرهم والدينار. وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها، إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها. فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفي ذلك قيل:

إني وجدت فلا تظنوا غيره ... أن التورع عند هذا الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته ... فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وفي ذلك قيل أيضًا:

لا يغرنك من المرء ... قميص رقعه
أو إزار فوق عظيم ... الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه ... أثر قد خلعه
أره الدرهم تعرف ... حبه أو ورعه

ويروي عن مسلمة بن عبد الملك، أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند موته فقال: يا أمير المؤمنين، صنعت صنيعًا لم يصنعه أحد قبلك. تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار، وكان له ثلاثة عشر من الولد، فقال عمر: أقعدوني فأقعدوه. فقال: أما قولك لم أدع لهم دينارًا ولا درهما، فإني لم أمنعهم حقًا لهم، ولم أعطهم حقًا لغيرهم. وإنما ولدي أحد رجلين، إما مطيع لله فالله كافيه، والله يتولى الصالحين. وإما عاص لله، فلا أبالي على ما وقع.

وروي أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالًا كثيرًا، فقيل له لو ادّخرته لولدك من بعدك قال لا، ولكني أدخره لنفسي عند ربي، وأدخر ربي لولدي. ويروى أنّ رجلًا قال لأبي عبد ربه يا أخي، لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير، فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم، وقال يحيى بن معاذ، مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلها للعبد في ماله عند موته. قيل وما هما؟ قال يؤخذ منه كله، ويُسأل عنه كله.

بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم:

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيرًا في مواضع من كتابه العزيز، فقال عَزَّوَجَلَّ: «**إن ترك خيرًا**» الآية، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**» [رواه مسلم بنحوه] وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج، فهو ثناء على المال، إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال تعالى ممتنًا على عباده: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٢].

ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح، إلا بأن تعرف حكمة المال، ومقصوده، وآفاته، وغوائله، حتى ينكشف لك أنه خير من وجه، وشر من وجه، وأنه محمود من حيث هو خير، ومذموم من حيث هو شر. فإنه ليس بخير محض، ولا هو شر محض، بل هو سبب للأمرين جميعًا. وما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة، ويذم أخرى. ولكن البصير المميز، يدرك أن المحمود منه غير المذموم. وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه في كتاب الشكر، من بيان الخيرات، وتفصيل درجات النعم، والقدر المقنع فيه هو أن مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة، التي هي النعيم الدائم، والملك المقيم، والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس، إذ قيل لرسول الله ﷺ: من أكرم الناس وأكيسهم فقال: «**أكثرهم للموت ذكرًا وأشدهم له استعدادًا**» [رواه ابن ماجه وحسنه الألباني]، وهذه السعادة لا تنال إلا بثلاث وسائل في الدنيا، وهي الفضائل النفسية، كالعلم، وحسن الخلق، والفضائل البدنية، كالصحة، والسلامة، والفضائل الخارجة عن البدن، كالمال، وسائر الأسباب. وأعلاها النفسية، ثم البدنية، ثم الخارجة، فالخارجة أخسها. والمال من جملة الخارجات. وأدناها الدراهم والدنانير، فإنها خادمان، ولا خادم لهما، ومرادان لغيرهما، ولا يرادان لذاتهما، إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها. والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس، والأعضاء. والمطاعم والملابس تخدم البدن، وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن، ومن المناكح إبقاء النسل، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها، وتزيينها بالعلم والخلق. ومن عرف هذا الترتيب، فقد عرف قدر المال، ووجه شرفه، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن، الذي هو ضرورة كمال النفس، الذي هو خير. ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده، واستعمله لتلك الغاية، ملتفتًا إليها، غير ناس لها، فقد أحسن، وكان ما حصَّل له الغرض محمودًا في حقه. فإذًا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح. ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة، وهي المقاصد الضَّادة عن سعادة الآخرة، وتسد سبيل العلم والعمل. فهو إذًا محمود مذموم.

محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم. فمن أخذ مِن الدنيا أكثر ممّا يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر. ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله، وكان المال مسهلًا لها، وآلة إليها، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شره، حتى قال نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللهم اجعل قوت آل محمد كفافًا**» [متفق عليه]، فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره، وقال: «**اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين**» [رواه الترمذي وابن ماجه]، واستعاذ إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة، إذ قد كُفي قبل النبوة عبادتها مع الصغر. وإنما معنى عبادتها حبها، والاغترار بها، والركون إليها قال نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعس عبد الدينار، وتعس عبدُ الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**» [روى البخاري أوله، وعلَّق آخره]، فبين أن محبها عابد لها. ومن عبد حجرًا فهو عابد صنم. بل كل من كان عبدًا لغير الله فهو عابد صنم أي من قطعه ذلك عن الله تعالى، وعن أداء حقه، فهو كعابد صنم. وهو شرك، إلا أن الشرك شركان، شرك خفي لا يوجب الخلود في النار، وقلما ينفك عنه، فإنه أخفى من دبيب النمل، وشرك جلي، يوجب الخلود في النار نعوذ بالله من الجميع. [قلتُ: حمله للآية على الذهب والفضة خلاف الظاهر، والله أعلم، والأنبياء لعلو قدرهم كانوا يخافون الشرك].

بيان تفصيل آفات المال وفوائده:

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق. ففوائده ترياقه، وغوائله سمومه. فمن عرف غوائله وفوائده، أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره.

أما الفوائد: فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية. أما الدنيوية، فلا حاجة إلى ذكرها، فإن معرفتها مشهورة، مشتركة بين أصناف الخلق. ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها.

وأما الدينية، فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع:

النوع الأول - أن ينفقه على نفسه، إما في عبادة، أو في الاستعانة على عبادة وأما في العبادة، فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد، فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال، وهما من أمهات القربات. والفقير محروم من فضلهما. وأما فيما يقويه على العبادة، فذلك هو المطعم والملبس، والمسكن، والمنكح؛ وضرورات المعيشة. فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر، كان القلب مصروفًا إلى تدبيرها؛ فلا يتفرغ للدين. وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين، من الفوائد الدينية، ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط.

النوع الثاني - ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام، الصدقة، والمروءة، ووقاية العرض، وأجرة الاستخدام، أما الصدقة، فلا يخفي ثوابها، وإنها لتطفئ غضب الرب تعالى، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم. وأما المروءة، فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف، في ضيافة، وهدية، وإعانة، وما يجري مجراها، فإن هذه لا تسمى صدقة بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج. إلا أن هذا من الفوائد الدينية، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء، وبه يكتسب صفة السخاء، ويلتحق بزمرة الأسخياء، فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف، ويسلك سبيل المروءة والفتوة. وهذا أيضًا مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا، والضيافات، وإطعام الطعام، من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها، وأما وقاية العرض، فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء. وثلب السفهاء، وقطع ألسنتهم، ودفع شرهم وهو أيضًا مع تنجز فائدته في العاجلة، من الحظوظ الدينية، قال رسول الله ﷺ: «**ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة**» [رواه أبو يعلى وضعفه الألباني]، وكيف لا وفيه منع المغتاب من معصية الغيبة، واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة، التي تحمل في المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

وأما الاستخدام. فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر،

الذي هو أعلى مقامات السالكين. ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام، وطحنه، وكنس البيت، حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه. وكل ما يتصور ان يقوم به غيرك، ويحصل به غرضك، فأنت متعوب إذا اشتغلت به. إذ عليك من العلم والعمل. والذكر والفكر، ما لا يتصور أن يقوم به غيرك، فتضييع الوقت في غيره خسران.

النوع الثالث - مالًا لا يصرفه إلى إنسان معين، ولكن يحصل به خير عام، كبناء المساجد والقناطر، والرباطات، ودور المرضى، ونصب الحباب في الطريق وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات. وهي من الخيرات المؤبدة، الدارَّة بعد الموت، المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية. وناهيك بها خيرًا.

فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذُل السؤال، وحقارة الفقر، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء، والوقار، والكرامة في القلوب. فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية.

وأما الآفات فدينية، ودنيوية. أما الدينية فثلاث:

الأولى - أن تجر إلى المعاصي، فإن الشهوات متفاضلة، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد، ومهما كان الإنسان آيسًا عن نوع من المعصية، لم تتحرك داعيته.

فإذا استشعر القدرة عليها، انبعثت داعيته. والمال نوع من القدرة، يحرك داعية المعاصي وارتكاب الفجور. فإن اقتحم ما اشتهاه هلك. وإن صبر وقع في شدة، إذ الصبر مع القدرة أشد. وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية - أنه يجر إلى التنعم في المباحات، وهذا أول الدرجات. فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير، ويلبس الثوب الخشن، ويترك لذائذ الأطعمة، كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في ملكه فأحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا، ويمرن عليها نفسه، فيصير التنعم مألوفًا عنده، ومحبوبًا لا يصبر عنه. ويجره البعض منه إلى البعض، فإذا اشتد أنسه به، ربما مال إلى ما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال، فيقتحم الشبهات، ويخوض في المراءاة، والمداهنة، والكذب، والنفاق، وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه، ويتيسر له تنعمه. فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ومن احتاج إلى الناس فلابد وأن ينافقهم، ويعصي الله في طلب رضاهم. فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى، وهي مباشرة الحظوظ، فلا يسلم عن هذه أصلًا. ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة، وينشأ عنه الحسد والحقد، والرياء والكبر، والكذب، والنميمة، والغيبة، وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان، ولا يخلو عن التعدي أيضًا إلى سائر الجوارح، وكل ذلك يلزم من شؤم المال، والحاجة إلى حفظه وإصلاحه.

الثالثة - وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى. وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران، ولذلك قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «في المال ثلاثة آفات: أن يأخذه من غير حله، فقيل إن أخذه من حله؟ فقال يضعه في غير حقه فقيل: إن وضعه في حقه؟ فقال يشغله إصلاحه عن الله تعالى. وهذا هو الداء العضال. فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله، والتفكر في جلاله. وذلك يستدعي قلبًا فارغًا. وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكرًا في خصومة الفلاح ومحاسبته، وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود، وخصومة أعوان السلطان في الخراج، وخصومة الأجراء على التقصير في العمارة، وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم. وصاحب التجارة يكون متفكرًا في خيانة شريكه، وانفراده بالربح، وتقصيره في العمل، وتضييعه للمال. وكذلك صاحب المواشي، وهكذا سائر أصناف الأموال. وأبعدها عن

كثرة الشغل، النقد المكنوز تحت الأرض، ولا يزال الفكر مترددًا فيما يصرف إليه، وفي كيفية حفظه، وفي الخوف مما يعثر عليه، وفي دفع أطماع الناس عنه. وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها. والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك.

فهذه جملة الآفات الدنيوية، سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف، والحزن، والغم، والهم، والتعب في دفع الحساد، وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه، فإذًا ترياق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات. وما عدا ذلك سموم وآفات، نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه، إنه على ذلك قدير.

بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس:

اعلم أن الفقر محمود كما أوردناه في كتاب الفقر. ولكن ينبغي أن يكون الفقير قانعًا منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريصًا على اكتساب المال كيف كان. ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم، والملبس، والمسكن، ويقتصر على أقله. ويرد أمله إلى يومه، أو إلى شهره، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر. فإن تشوّق إلى الكثير، أو طوّل أمله، فاته عز القناعة، وتدنس لا محالة بالطمع وذُلّ الحرص. وجره الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروآت. وقد جُبل الآدمي على الحرص والطمع، وقلة القناعة. قال رسول الله ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**» [متفق عليه]، وعن أبي واقد الليثي، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُوحي إليه، أتيناه يعلمنا مما أوحي إليه، فجئته ذات يوم فقال: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة،ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لأحب أن يكون له ثانٍ، ولو كان له الثاني لأحب أن يكون لهما ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**» [الصحيحة: ١٦٣٩]، وقال أبو موسى الأشعري، نزلت سورة نحو براءة ثم رُفعت. وحُفظ منها: «**إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم. ولو أن لابن**

آدم واديين من مال لتمنى واديًا ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» [رواه مسلم دون قوله: «**إن الله يؤيد هذا الدين..**»]، وقال ﷺ: «**منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال**» [رواه الطبراني وصححه الألباني بلفظ: طالبُ علم وطالبُ دنيا]، وقال ﷺ: «**يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الأمل وحب المال**» [متفق عليه]، أو كما قال ﷺ.

ولما كانت هذه جِبلَّة للآدمي مُضلة، وغريزة مُهلِكة أثنى الله تعالى ورسوله ﷺ على القناعة، فقال ﷺ: «**طوبى لمن هُدي للإسلام وكان عيشه كفافًا وَقَنَعَ به**» [رواه الترمذي وصححه وهو عند مسلم بمعناه]، وقال ﷺ: «**ليس الغِنى عن كثرة العَرَضِ إنما الغِنَى غِنى النفس**» [متفق عليه]، ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب، فقال: «**ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كُتب له من الدنيا وهي راغمة**» [رواه الحاكم وصححه الألباني]، وروي أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل ربه تعالى فقال: «أي عبادك أغنى؟ قال أقنعهم بما أعطيته». قال فأيهم أعدل؟ قال من أنصف من نفسه [أورده الألباني في الصحيحة]. وقال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «**إن روح القدس نفث في رُوعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**» [رواه الحاكم وصححه الألباني]، وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**كن ورعًا تكن أعبد الناس، وكن قَنِعًا تكن أشكر الناس، وأَحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا**» [رواه ابن ماجه وصححه الألباني]، ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري، أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله عِظني، وأوجز. فقال: «**إذا صلّيت فصلِّ صلاة مودِّع ولا تُحدِّثن بحديث تعتذر منه غدًا وأجمع اليأس مما في أيدي الناس**» [رواه ابن ماجه وحسنه الألباني]، وقال عوف بن مالك الأشجعي: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة. فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» قلنا: أوليس بايعناك يا رسول الله؟

ثم قال: «**ألا تُبايعون رسول الله؟**» فبسطنا أيدينا فبايعناه. فقال قائل منا، قد بايعناك، فعلى ماذا نبايعك؟ قال: «**أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وتصلوا الخمس وأن تسمعوا وتطيعوا**»، وأسر كلمة خفية، «**ولا تسألوا الناس شيئًا**»، قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه، فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه [رواه أبو داود وابن ماجه وصححه الألباني].

الآثار: قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم، وقيل لبعض الحكماء، ما الغنى؟ قال قِلة تمنيك، ورضاك بما يكفيك». وفي ذلك قيل:

العيش ساعات تمر	وخطوب أيام تكر
اقنع بعيشك ترضه	واترك هواك تعِش حر
فلرب حتف ساقه	ذهب ويا قوت ودر

وكان محمد بن واسع، يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله، ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد. وقال سفيان: خير دنياكم ما لم تبتلوا به، وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم. وقال ابن مسعود: «ما من يوم إلا وملك ينادي يا ابن آدم، قليل يكفيك، خير من كثير يطغيك وقال شميط بن عجلان: إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر، فلم يدخلك النار؟ وقيل لحكيم ما مالك؟ قال التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس مما في أيدي الناس».

ويروى أن الله عَزَّوَجَلَّ قال: «**يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك، لم يكن لك منها إلا القوت. وإذا أنا أعطيتك منها القوت، وجعلت حسابها على غيرك، فأنا إليك محسن**»، وقال ابن مسعود: «إذا طلب أحدكم الحاجة، فليطلبها طلبًا يسيرًا، ولا يأتي الرجل فيقول: إنك وإنك فيقطع ظهره، فإنما يأتيه ما قُسم له من الرزق أو ما رُزق. وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم، يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه. فكتب إليه قد رَفعتُ حوائجي إلى مولاي، فما أعطاني منها قبلتُ، وما أمسك عني قنعتُ».

وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أسر للعاقل؟ وأيما شيء أعون على دفع الحزن؟ فقال: أسرها إليه ما قدم من صالح العمل، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء. وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غمًا الحسود، وأهنأهم عيشًا القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشًا أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفي ذلك قيل:

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة ... أنّ الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعِرض منه مَصون لا يدنسه ... والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق في دهره شيئًا يؤرقه

وقد قيل أيضًا:

حتى ما أنا في حِل وترحال ... وطول سعي وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفكُّ مغتربًا ... عن الأحبة لا يدرون ما حالي
بمشرق الأرض طَورا ثمّ مغربها ... لايخطرالموتمن حرصي على بال
ولو قَنعتُ أتاني الرزق في دعة ... إن القنوع الغِنى لا كثرة المال

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى؟ حلتان لشتائي وقيظي وما يسعني من الظَّهر لحجي وعمرتي، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش، لست بأرفعهم، ولا بأوضعهم. فوالله ما أدري أيحل ذلك أم لا؟ كأنه شك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها. وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال يا أخي، أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته، وتطلب أنت ما قد كفيته، وكأن ما غاب عنك قد كُشف لك، وما أنت فيه قد نُقلتَ عنه. كأنك يا أخي لم تر حريصًا محرومًا، وزاهدًا مرزوقًا. وفي ذلك قيل:

أراك يزيدك الإثراء حرصًا ... على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يومًا ... إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي: «حكي أن رجلًا صاد قنبرة، فقالت ما تريد أن تصنع بي؟ قال أذبحك وآكلك. قالت: والله ما أشفي من قرم، ولا أشبع من جوع، ولكن أعلمك ثلاث خصال، هي خير لك من أكلي، أما واحدة، فأعلمك وأنا في يدك، وأما الثانية، فإذا صرتُ على الشجرة، وأما الثالثة، فإذا صرتُ على الجبل. قال: هات الأولى. قالت: لا تلهفنَّ على ما فاتك. فخلاها، فلما صارت على الشجرة، قال: هات الثانية. قالت: لا تُصدقنَّ بما لا يكون أنه يكون. ثم طارت على الجبل، فقالت: يا شقي، لو ذبحتني لأخرجتَ من حوصلتي درتين زنة كل درة عشرون مثقالًا. قال: فعضَّ على شفته وتلهف وقال، هات الثالثة. قالت: أنت قد نسيت اثنتين، فكيف أخبرك بالثالثة، ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك؟ ولا تصدقن بما لا يكون؟ أنا لحمي، ودمي، وريشي، لا يكون عشرين مثقالًا فكيف يكون في حوصلتي درتان كل واحدة عشرون مثقالًا؟ ثم طارت فذهبت»، وهذا مثال لفرط طمع الآدمي، فإنه يُعميه عن درك الحق، حتى يُقدِّر ما لا يكون أنه يكون.

وقال ابن السماك: «إن الرجاء حبل في قلبك، وقيد في رجلك. فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك»، وقال أبو محمد اليزيدي: «دخلت على الرشيد، فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب. فلما رآني تبسم. فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية. فاستحسنتهما. وقد أضفت إليهما ثالثًا. وأنشدني:

إذا سد باب عنك دون حاجة	فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه	ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها
ولا تَكُ مِبذالًا لعِرضك واجتنب	ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب: «ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها؟ قال: الطمع، وشره النفس، وطلب الحوائج»، وقال رجل للفضيل: «فسِّر لي قول كعب. قال: يطمع الرجل في الشيء يطلبه، فيذهب عليه دينه. وأما الشره، فشره

النفس في هذا وفي هذا، حتى لا تحب أن يفوتها شيء. ويكون لك إلى هذا حاجة، وإلى هذا حاجة، فإذا قضاها لك خزم أنفك، وقادك حيث شاء، واستمكن منك، وخضعتَ له. فمن حُبك للدنيا سلّمتَ عليه إذا مررتَ به، وعُدته إذا مرض، لم تسلّم عليه لله عَزَّوَجَلَّ، ولم تعده لله. قال بعض الحكماء: «من عجيب أمر الإنسان أنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خِلقته من الحرص على الجمع، أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع، وتَوقُّع الزوال. وقال عبد الواحد بن زيد، مررت براهب، فقلت له: من أين تأكل؟ قال: من بيدر اللطيف الخبير، الذي خلق الرحا يأتيها بالطحين. وأومأ بيده إلى رحا أضراسه. فسبحان الله القدير الخبير.

بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة:

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول - وهو العمل، والاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق. فمن أراد عز القناعة، فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويرد نفسه إلى ما لابد له منه. فمن كثر خرجه، واتسع إنفاقه، لم تمكنه القناعة. بل إن كان وحده، فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن، ويقنع بأي طعام كان، ويقلل من الأدام ما أمكنه، ويوطن نفسه عليه. وإن كان له عيال، فيرد كل واحد إلى هذا القدر فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد، ويمكن معه الإجمال في الطلب، والاقتصاد في المعيشة، وهو الأصل في القناعة، ونعني به الرفق في الإنفاق، وترك الخرق فيه.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله**» [متفق عليه]، وقال ﷺ: «**ما عال من اقتصد**» [رواه أحمد وضعفه الأرناؤوط]، وقال ﷺ: «**ثلاث مُنجياتٌ: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب**» [رواه الطبراني وصححه الألباني]، وروي أن رجلًا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبًا من

الأرض، وهو يقول: «إن من فقهك رفقك في معيشتك»، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الاقتصاد وحسن السمت والهَديُ الصالح جزء من بضع وعشرين جزءًا من النبوة**» [رواه الترمذي وحسنه الألباني]، والتؤدة في الإنفاق من أهم الأمور.

الثاني - أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق قُدِّر له لا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه. فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغي أن يكون واثقًا بوعد الله تعالى، إذ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وذلك لأن الشيطان يعده الفقر، ويأمره بالفحشاء، ويقول إن لم تحرص على الجمع والادخار، فربما تمرض، وربما تعجز، وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤال. فلا يزال طول العمر يُتعبه في الطلب، خوفًا من التعب، ويضحك عليه في احتماله التعب نقدًا مع الغفلة عن الله، لتوهم تعب في ثاني الحال، وربما لا يكون. وفي مثله قيل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ولا ينفك الإنسان عن الحرص، إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله. وقال سفيان: «اتق الله فما رأيت تقيًا محتاجًا» أي لا يُترك التقي فاقدًا لضرورته، بل يُلقِي الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه. وقال أبو حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجدت الدنيا شيئين: شيئًا منهما هو لي، فلن أعجله قبل وقته، ولو طلبته بقوة السموات والأرض، وشيئًا منهما هو لغيري، فذلك لم أنله فيما مضى، فلا أرجوه فيما بقي. يمنع الذي لغيري مني، كما يمنع

الـذي لي مـن غيري. ففي أي هذين أفنـي عمري، فهذا دواء من جهـة المعرفة، لابد منه لدفع تخويف الشيطان وإنذاره بالفقر.

الثالث - أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في الحرص والطمع من الذل فـإذا تحقـق عنده ذلك، انبعثت رغبته إلى القناعة، لأنـه في الحرص لا يخلو من تعب، وفي الطمـع لا يخلـو من ذل. وليـس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشـهوات والفضول. وهذا ألم لا يطلـع عليـه أحـد إلا الله، وفيه ثـواب الآخرة. وذلـك مما يضاف إليـه نظر الناس، وفيـه الوبال والمأثم. ثـم يفوته عز النفس، والقدرة على متابعة الحـق. فإن من كثر طمعه وحرصـه كثرت حاجته إلى الناس، فلا يمكنـه دعوتهم إلى الحق، ويلزمه المداهنة. وذلك يهلك دينه. ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن، فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان.

قال ﷺ: «**عز المؤمن استغناؤه عن الناس**» [رواه الطبراني وحسنه الألباني]، ففي القناعة الحرية والعز. ولذلك قيل: اسـتغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

الرابـع - أن يكثـر تأمله في تنعـم اليهود والنصـارى، وأراذل الناس، والحمقى من الأكـراد، والأعـراب الأجلاف، ومن لا دين لهم ولا عقل، ثم ينظـر إلى أحوال الأنبياء، والأولياء، وإلى سمت الخلفاء الراشدين، وسائر الصحابة والتابعين. ويستمع أحاديثهم، ويطالع أحوالهم، ويُخيّر عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس، أو على الاقتداء بمن هـو أعز أصنـاف الخلق عند الله، حتـى يهون عليه بذلـك الصبر على الضنـك، والقناعة باليسـير، فإنه إن تنعم في البطن، فالحمار أكثر أكلًا منـه. وإن تنعم بالوقاع، فالخنزير أعلى رتبة منه. وإن تزين في الملبس والخيل، ففي اليهود من هو أعلى زينة منه. وإن قنع بالقليل، ورضي به، لم يساهمه في رتبته إلى الأنبياء والأولياء.

الخامـس - أن يفهـم ما في جمع المال من الخطر، كما ذكرنا في آفات المال، وما فيه من خوف السرقة، والنهب، والضياع. وما في خلو اليد من الأمن والفراغ. ويتأمل ما ذكرناه

في آفات المال، مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه، أُلحق بزمرة الأغنياء، وأُخرَج من جريدة الفقراء. ويتم ذلك بأن ينظر أبدًا إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه. فإن الشيطان أبدًا يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول: لِمَ تَفتر عن الطلب، وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس. ويصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول: ولِمَ تُضيّق على نفسك وتخاف الله، وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله، والناس كلهم مشغولون بالتنعم، فلِمَ تريد أن تتميز عنهم. قال أبو ذر: أوصاني خليلي صلوات الله عليه، «أن أنظر إلى من هو دوني، لا إلى من هو فوقي، أي في الدنيا» [رواه أحمد وصححه الألباني]، وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فضَّله الله عليه في المال والخَلْق فلينظر إلى مَنْ هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه**» [معناه صحيح لكن لا يصح لظفه]، فبهذه الأمور يَقدر على اكتساب خُلق القناعة. وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل، للتمتع دهرًا طويلًا، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء، لشدة طمعه في انتظار الشفاء.

بيان فضيلة السخاء:

اعلم أن المال إن كان مفقودًا، فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص. وإن كان موجودًا، فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء، واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل. فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو أصل من أصول النجاة.

وعن جابر قال: قيل يا رسول الله، أي الإيمان أفضل؟ قال: «**الصبر والسماحة**» [الصحيحة:٥٤٤]، وروى المقدام بن شريح، عن أبيه، عن جده، قال: قلت: يا رسول الله دُلني على عمل يدخلني الجنة. قال: «**إنَّ من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام، وحُسن الكلام**» [الصحيحة:١٠٣٥]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله جواد يحب الجود**» [أورده الألباني في صحيح الجامع]، وقال أنس: إن رسول الله لم يُسئل على الإسلام شيئًا إلا أعطاه.

وأتاه رجل فسأله، فأمر له بشاء كثيرة بين جبلين من شاء الصدقة. فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة. وقال ابن عمر: قال ﷺ: «**إن لله عبادًا يختصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله تعالى عنه وحولها إلى غيره**» [رواه الطبراني وحسنه الألباني]، وقال عيسى عليه السلام: استكثروا من شيء لا تأكله النار، قيل: وما هو؟ قال: المعروف. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، وإن البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، وجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل، وأدوأ الداء البخل**» [رواه الترمذي وضعفه الألباني جدًا]، وقال ﷺ: «**اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله وإن لم تُصب أهله فأنت من أهله**» [مرسل]، وقال ﷺ: «**كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كُتب له صدقة وما وَقَى به الرجل عِرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها**» [أورده في الضعيفة]، وقال ﷺ: «**كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان**» [أورده في السلسلة الصحيحة دون قوله: والله يحب...، فهو ضعيف]، وقال جابر: بعث رسول الله ﷺ بعثًا، عليهم قيس بن سعد بن عبادة، فجهدوا، فنحر لهم قيس تسع ركائب. فحدثوا رسول الله ﷺ بذلك، فقال ﷺ: «**إنَّ الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت**»

الآثار: قال علي رضي الله عنه: «إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها، فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها، فإنها لا تبقى». وأنشد:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة ... فليس ينقصها التبذير والسرف

وإن تولت فأحرى أن تجود بها ... فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهما عن المروءة، والنجدة، والكرم. فقال: أما المروءة، فحفظ الرجل دينه، وحذره نفسه، وحسن قيامه بضيفه، وحسن المنازعة

والإقدام في الكراهية. وأما النجدة، فالذب عن الجار، والصبر في المواطن. وأما الكرم، فالتبرع بالمعروف قبل السؤال، والإطعام في المحل، والرأفة بالسائل، مع بذل النائل ورفع رجل إلى الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رقعة، فقال حاجتك مقضية. فقيل له يا ابن رسول الله، لو نظرت في رقعته، ثم رددت الجواب على قدر ذلك؟ فقال: يسألني الله عَزَّوَجَلَّ عن ذل مقامه بين يديّ حتى أقرأ رقعته. وقال ابن السماك: «عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه». وسئل بعض الأعراب، «من سيدكم؟ فقال: من احتمل شتمنا، وأعطى سائلنا، وأغضى عن جاهلنا». وقال علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من وُصف ببذل ماله لطلابه، لم يكن سخيًا. وإنما السخي من يبتدي بحقوق الله تعالى في أهل طاعته، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له، إذا كان يقينه بثواب الله تامًا». وقيل للحسن البصري: «ما السخاء؟ فقال: أن تجود بمالك في الله عَزَّوَجَلَّ، قيل: فما الحزم؟ قال: أن تمنع مالك فيه. قيل: فما الإسراف؟ قال: الإنفاق لحب الرياسة.

وقال جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا مال أعون من العقل، ولا مصيبة أعظم من الجهل، ولا مظاهرة كالمشاورة. ألا وإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «إني جواد كريم، لا يجاورني لئيم»، واللؤم من الكفر، وأهل الكفر في النار. والجود والكرم من الإيمان، وأهل الإيمان في الجنة. وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رب فاجر في دينه، أخرق في معيشته، يدخل الجنة بسماحته». وروي أن الأحنف بن قيس رأى رجلًا في يده درهم، فقال لمن هذا الدرهم؟ فقال لي. فقال: أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك. وفي معناه قيل:

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

وقال الأصمعي: «كتب الحسن بن علي، إلى الحسين بن علي - رضوان الله عليهم- يعتب عليه في إعطاء الشعراء. فكتب إليه، خير المال ما وُقي به العِرض. وقيل لسفيان ابن عيينة: ما السخاء؟ قال: السخاء البر بالإخوان، والجود بالمال. قال وورث أبي خمسين ألف درهم، فبعث بها صررًا إلى إخوانه وقال: قد كنت أسأل الله تعالى لإخواني الجنة

في صلاتي، أفأبخل عليهم بالمال! وقال الحسن: بذل المجهود في بذل الموجود، منتهى الجود.

وقيل لبعض الحكماء: من أحب الناس إليك؟ قال من كثرت أياديه عندي قيل فإن لم يكن قال: من كثرت أيادي عنده. وقال عبد العزيز بن مروان: إذا الرجل أمكنني من نفسه حتى أضع معروفي عنده، فيده عندي مثل يدي عنده. وقال المهدي لشبيب بن شبة: كيف رأيت الناس في داري؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الرجل منهم ليدخل راجيًا ويخرج راضيًا. وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال:

إن الصنيعة لا تكون صنيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع

فإذااصطنعتصنيعةفاعمدبها ... لله أو لذوي القرابة أَوْ دَعْ

فقال عبد الله بن جعفر: إن هذين البيتين ليبخلان الناس، ولكن أمطر المعروف مطرًا، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلًا، وإن أصاب اللئام كنت له أهلًا.

حكايات الأسخياء

عن محمد بن المنكدر، عن أم درة، وكانت تخدم عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين، ثمانين ومائة ألف درهم. فدعت بطبق، فجعلت تقسمه بين الناس. فلما أمست قالت: يا جارية، هلمي فطوري. فجاءتها بخبز وزيت. فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما قسمت اليوم، أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟ فقالت: لو كنت ذكرتيني لفعلت. وعن أبان بن عثمان قال: أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس، فأتى وجوه قريش فقال: يقول لكم عبيد الله تغدوا عندي اليوم. فأتوه حتى ملأوا عليه الدار. فقال: ما هذا؟ فأُخبر الخبر. فأمر عبيد الله بشراء فاكهة، وأمر قومًا فطبخوا، وخبزوا وقُدِّمت الفاكهة إليهم، فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد، فأكلوا حتى صدروا. فقال عبيد الله لوكلائه، أو موجود لنا هذا كل يوم؟ قالوا: نعم، قال: فليتغد عندنا هؤلاء في كل يوم وقال مصعب بن الزبير: حج معاوية، فلما انصرف مر

بالمدينة، فقال الحسين بن علي لأخيه الحسن: لا تلقه ولا تسلم عليه. فلما خرج معاوية قال الحسن: إن علينا دينًا، فلابد لنا من إتيانه. فركب في أثره ولحقه، فسلم عليه وأخبره بدينه. فمروا عليه ببخْتِي عليه ثمانون ألف دينار، وقد أعيا وتخلف عن الإبل، وقوم يسوقونه. فقال معاوية: ما هذا؟ فذُكر له فقال: اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد. وعن واقد بن محمد الواقدي قال: حدثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون، يذكر فيها كثرة الدين، وقلة صبره عليه. فوقع المأمون على ظهر رقعته، إنك رجل اجتمع فيك خصلتان، السخاء والحياء. فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك، وأما الحياء فهو الذي يمنعك عن تبليغنا ما أنت عليه. وقد أمرت لك بمائة ألف درهم. فإن كنتُ قد أصبتُ فازدد في بسط يدك. وإن لم أكن قد أصبتُ فجنايتك على نفسك، وأنتَ حدثتني وكنت على قضاء الرشيد، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن أنس، أن النبي ﷺ قال للزبير بن العوام: «**يا زبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله عَزَّوَجَلَّ إلى كل عبد بقدر نفقته فمن كَثَّر كَثَّر له ومن قلَّل قلَّل له**» [رواه الدراقطني وهو ضعيف]، وأنت أعلم. قال الواقدي: فوالله لمذاكرة المأمون إياي بالحديث أحب إليّ من الجائزة وهي مائة ألف درهم، وسأل رجل الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حاجة، فقال له يا هذا، حق سؤالك إياي يعظم لدي، ومعرفتي بما يجب لك تكبر عليّ، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله، والكثير في ذات الله تعالى قليل، وما في مِلكي وفاء لشكرك. فإن قبلت الميسور، ورفعت عني مؤنة الاحتمال، والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك، فعلت. فقال يا ابن رسول الله، أقبل وأشكر العطية، وأعذر على المنع فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها. فقال: هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم، فأحضر خمسين ألفًا. قال: فما فعلت بالخمسمائة دينار؟ قال: هي عندي. قال: أحضرها. فأحضرها. فدفع الدنانير والدراهم إلى الرجل، وقال: هات من يحملها لك. فأتاه بحمالين، فدفع إليه الحسن رداءه لكراء الحمالين. فقال له مواليه، والله ما عندنا درهم فقال: أرجوا أن يكون لي عند الله أجر عظيم.

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة. فقالوا: لنا جار صوام قوام، يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله، وقد زوج ابنته من ابن أخيه، وهو فقير، وليس عنده ما يجهزها به. فقام عبد الله بن عباس، فأخذ بأيديهم، وأدخلهم داره، وفتح صندوقًا فأخرج منه ست بدر. فقال: احملوا، فحملوا. فقال ابن عباس: ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه. ارجعوا بنا لكن أعوانه على تجهيزها، فليس للدنيا القدر ما يشغل مؤمنًا عن عبادة ربه من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى. ففعل وفعلوا.

وحُكي أنه لما أجدب الناس بمصر، وعبد الحميد بن سعد أميرهم، فقال: والله لأُعلمن الشيطان أني عدوه. فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار، ثم عُزل عنهم، فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم فرهنهم بها حلي نسائه، وقيمتها خمسمائة ألف ألف. فلما تعذر عليه ارتجاعها، كتب إليهم ببيعها، ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صِلاتُه.

وكان أبو مرثد أحد الكرماء، فمدحه بعض الشعراء. فقال للشاعر: والله ما عندي ما أعطيك، ولكن قدمني إلى القاضي، وادّعِ علي بعشرة آلاف درهم، حتى أقر لك بها ثم احبسني، فإن أهلي لا يتركوني محبوسًا. ففعل ذلك، فلم يُمسِ حتى دُفع إليه عشرة آلاف درهم، وأُخرج أبو مرثد من الحبس. [قلت: هذا اجتهاده ولكن لو كان المال المدفوع غير ماله فلا يجوز].

وقال أبو الحسن المدائني، خرج الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر حجاجًا ففاتهم أثقالهم. فجاعوا وعطشوا. فمروا بعجوز في خباء لها، فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا إليها، وليس لها إلا شويهة في كسر الخيمة. فقالت: احلبوها، وامتذقوا لبنها ففعلوا ذلك. ثم قالوا لها، هل من طعام؟ قالت: لا إلا هذه الشاة. فليذبحها أحدكم، حتى أهيء لكم ما تأكلون. فقام إليها أحدهم، وذبحها، وكشطها. ثم هيأت لهم طعامًا. فأكلوا، وأقاموا حتى أبردوا. فلما ارتحلوا، قالوا لها: نحن نفر من

قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين، فأَلّمي بنا، فإنا صانعون بك خيرًا. ثم ارتحلوا. وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة، فغضب الرجل، وقال ويلك، تذبحين شاتي لقوم لاتعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش! قال: ثم بعد مدة، ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه، ويتعيشان بثمنه. فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره، فعرف العجوز، وهي له منكرة. فبعث غلامه فدعا العجوز، وقال لها يا أمة الله، أتعرفيني؟ قالت: لا ، قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا. فقالت العجوز: بأبي أنت وأمي أنت هو؟ قال: نعم، ثم أمر الحسن، فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين. فقال لها الحسين: بكم وصلك أخي؟ قالت: بألف شاة وألف دينار. فأمر لها الحسين أيضًا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر فقال لها: بكم وصلكِ الحسن والحسين. قالت: بألفي شاة وألفي دينار، فأمر لها عبد الله بألفي شاة وألفي دينار، وقال لها: لو بدأت بي لأتعبتها. فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة، وأربعة آلاف دينار.

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله، وهو وحده، فقام إليه غلام من ثقيف، فمشى إلى جانبه. فقال له عبد الله: ألك حاجة يا غلام؟ قال: صلاحك وفلاحك رأيتك تمشي وحدك، فقلت: أقيك بنفسي، وأعوذ بالله إن طار بجنابك مكروه. فأخذ عبد الله بيده، ومشى معه إلى منزله، ثم دعا بألف دينار، فدفعها إلى الغلام، وقال استنفق هذه، فنعم ما أدبك أهلك.

وقدم رجل من قريش من السفر فمر برجل من الأعراب على قارعة الطريق، قد أقعده الدهر، وأضرّ به المرض. فقال: يا هذا أعنّا على الدهر. فقال الرجل لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه. فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة ألاف درهم، فذهب لينهض، فلم يقدر من الضعف فبكى. فقال له الرجل: ما يبكيك، لعلك استقللت ما

أعطيناك؟ قال: لا، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني. واشترى عبدالله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق، بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل، سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله، ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون لدراهم. فقال: يا غلام ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعًا.

وقيل: بعث هارون الرشيد إلى مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخمسمائة دينار. فبلغ ذلك الليث بن سعد، فأنفذ إليه ألف دينار. فغضب هارون وقال: أعطيته خمسمائة، وتعطيه ألفًا، وأنت من رعيتي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي من غلتي كل يوم ألف دينار، فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم. وحُكي أنه لم تجب عليه الزكاة، مع أن دخله كل يوم ألف دينار. وحُكي أن امرأة سألت الليث بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيئًا من عسل. فأمر لها بزق من عسل. فقيل له: إنها كانت تقنع بدون هذا. فقال إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا. وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم، حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينًا. وقال الأعمش: اشتكت شاة عندي، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي، ويسألني هل استوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتي لبد أجلس عليه، فإذا خرج قال: خذ ما تحت اللبد، حتى وصل إليّ في علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره، حتى تمنيتُ أن الشاة لم تبرأ.

وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بن خارجة، بلغني عنك خصال، فحدثني بها. فقال: هي من غيري أحسن منها مني. فقال: عزمت عليك إلا حدثتني بها. فقال: يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط، ولا صنعت طعامًا قط، فدعوت عليه قومًا، إلا كانوا أمن عليَّ مني عليهم. ولانصب لي رجل وجهه قط، يسألني شيئًا، فاستكثرت شيئًا أعطيته إياه. ودخل سعيد بن خالد، على سليمان بن عبد الملك، وكان سعيد رجلًا جوادًا فإذا لم يجد شيئًا، كتب لمن سأله صكًا على نفسه، حتى يخرج عطاؤه فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال:

إني سمعت مع الصباح مناديًا ... يا من يُعين على الفتى المعوان

ثم قال: ما حاجتك؟ قال: دَيني قال: وكم هو؟ قال: ثلاثون ألف دينار؟ قال: لك دينك ومثله.

وقيل: مرض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبطأ إخوانه، فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّيْن، فقال أخزى الله مالًا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه برئ. قال: فانكسرت درجته بالعشي، لكثرة من زاره وعاده. وعن أبي إسحاق قال: صليت الفجر في مسجد الأشعث بالكوفة، أطلب غريمًا لي. فلما صليت، وضع بين يدي حلة ونعلان. فقلت: لست من أهل هذا المسجد. فقالوا: إن الأشعث بن قيس الكندي، قدم البارحة من مكة، فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونعلين.

وروي أن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لما مرض مرض موته بمصر، قال: مروا فلانًا يغسلني، فلما توفي، بلغه خبر وفاته، فحضر وقال: ائتوني بتذكرته. فأتي بها، فنظر فيها، فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين. فكتبها على نفسه، وقضاها عنه، وقال هذا غسلي إياه. أي أراد به هذا. وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشي: لما قدمت مصر، طلبت منزل ذلك الرجل، فدلوني عليه، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم، فرأيت فيهم سيما الخير، وآثار الفضل. فقلت: بلغ أثره في الخير إليهم، وظهرت بركته فيهم، مستدلًا بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]. وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان، لشيء بلغني عنه. أنه كان ذات يوم راكبًا حماره، فحركه، فانقطع زره. فمر على خياط، فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره. فقال الخياط: والله لا نزلت، فقام الخياط إليه، فسوى زره. فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير، فسلمها إلى الخياط، واعتذر إليه من قلتها. وأنشد الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لنفسه:

يا لهف قلبي على مال أجود به ... على المقلِّين من أهل المروآت

إنَّ اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال: أخذ رجل بركاب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: يا ربيع، أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني، وقال الربيع: قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة، ونثرها على ثوب، ثم أقبل على كل من دخل عليه، يقبض له قبضة ويعطيه، حتى صلى الظهر، ونقض الثوب وليس عليه شيء. وعن أبي ثور قال: أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال. وكان قلما يمسك شيئًا من سماحته. فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك. قال: فخرج، ثم قدم علينا، فسألته عن ذلك المال، فقال: ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها، لمعرفتي بأصلها، وقد وقف أكثرها. ولكني بنيتُ بمنىً مضربًا، يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه. وأنشد الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لنفسه يقول:

أرى نفسي تتوق إلى أمور ... يقصر دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل ... ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي: دخل أبي على المأمون، فوصله بمائة ألف درهم. فلما قام من عنده تصدق بها. فأُخبر بذلك المأمون، فلما عاد إليه، عاتبه المأمون في ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين، مَنْعُ الموجود سوء ظن بالمعبود. فوصله بمائة ألف أخرى. وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى. فقال له سعيد: ما يبكيك؟ قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك فأمر له بمائة ألفٍ أخرى.

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها، فوجده عليلًا، فقبل منه المدحة، وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه. وقال عسى أن أقوم من مرضي فأكافئه. فأقام شهرين فأوحشه طول المقام، فكتب إليه يقول:

إنّ حرامًا قبول مدحتنا ... وترك ما نرتجي من الصفد
كما الدراهم والدنانير في ... البيع حرام إلا يدًا بيد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه: كم أقام بالباب، قال شهرين. قال: أعطه ثلاثين ألفًا، وجئني بدواة، فكتب إليه:

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا ... فلا ولو أمهلتنا لم نقلل

فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ... ونقول نحن كأننا لم نفعل

وروي أنه كان لعثمان على طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خمسون ألف درهم. فخرج عثمان يومًا إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهيأ مالك فأقبضه فقال: هو لك يا أبا محمد، معونة لك على مروءتك. وقالت سعدي بنت عوف، دخلت على طلحة، فرأيت منه ثقلًا. فقلت له مالك؟ فقال: اجتمع عندي مال وقد غمني. فقلت: وما يغمك؟ ادع قومك. فقال: يا غلام. عليّ بقومي فقسمه فيهم. فسألت الخادم كم كان؟ قال أربعمائة ألف. وجاء أعرابي إلى طلحة، فسأله وتقرب إليه برحم. فقال: إن هذه الرحم ما سألني بها أحد قبلك. إن لي أرضًا قد أعطاني بها عثمان ثلثمائة ألف، فإن شئتَ فاقبضها، وإن شئتَ بعتها من عثمان، ودفعت إليك الثمن فقال: الثمن. فباعها من عثمان، ودفع إليه الثمن. وقيل: بكى عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا. فقيل: ما يبكيك؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني.

وأتى رجل صديقًا له، فدق عليه الباب، فقال ما جاء بك؟ قال: عليّ أربعمائة درهم دين فوزن أربعمائة درهم، وأخرجها إليه، وعاد يبكي، فقالت امرأته: لِمَ أعطيته إذ شق عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله، حتى احتاج إلى مفاتحتي. فرحم الله من هذه صفاتهم، وغفر لهم أجمعين.

بيان ذم البخل:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن

فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:٣٧]، وقال ﷺ: «**إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة بخيل ولا خِبّ ولا خائن ولا سيء الملكة**»، وفي رواية «**ولا جبار**»، وفي رواية «**ولا منان**» [رواه الترمذي وضعفه الألباني]، وقال ﷺ: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوىً متَّبع وإعجاب المرء بنفسه**» [السلسلة الصحيحة:١١٠٢]، وقال ﷺ: «**مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق شيئًا إلا سَبَغَتْ أو وَفَرَتْ على جلده حتى تُخفي بَنانه، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا قَلَصَتْ ولَزِمَتْ كلُّ حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه فهو يوسِّعها ولا تتسع**» [متفق عليه]، وقال: ﷺ: «**خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق**» [رواه الترمذي وضعفه الألباني]، وقال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر**» [رواه البخاري]، وقال ﷺ: «**إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة وإياكم والفحش إن الله لا يحب الفاحش، ولا المتفحش، وإياكم والشح، فإنما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**» [رواه أبو داود وصححه الألباني]، وقال ﷺ: «**شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع**» [رواه أبو داود وصححه الألباني]، وقال جبير بن مطعم: «بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ، ومعه الناس مقفلة من خيبر إذا علقت برسول الله ﷺ الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه. فوقف ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه العِضاة نَعَمًا لقَسَمْتُه بينكم ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذابًا ولا جبانًا**» [رواه البخاري]، وقال عمر رضي الله عنه: قسم رسول الله ﷺ قسمًا. فقلت: غير هؤلاء كانوا أحق به منهم. فقال: «**إنهم يخيِّروني بين أن يسألوني بالفُحش أو يُبخِّلوني وليست بباخل**» [رواه مسلم].

وقال أبو سعيد الخدري: «دخل رجلان على رسول الله ﷺ فسألاه ثمن بعير. فأعطاهما دينارين. فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالا معروفًا، وشكرًا ما صنع بهما. فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالا. فقال ﷺ: «**لكن فلان أعطيته ما بين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك إن أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته متأبطها وهي نار**» فقال عمر: فلِمَ تُعطيهم ما هو نار؟ فقال: «**يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل**» [رواه أحمد وسنده صحيح]، وقال ﷺ لوفد بني لَحيان: «**من سيدكم يا بني لَحيان؟**» قالوا: سيدنا جدّ بن قيس، إلا أنه رجل فيه بخل. فقال ﷺ: «**وأي داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجموح**» [رواه الطبراني وحسنه العراقي]، وفي رواية أنهم قالوا: سيدنا جد بن قيس فقال: «**بم تسوِّدونه؟**» قالوا: إنه أكثرنا مالًا، وإنا على ذلك لنرى منه البخل. فقال ﷺ: «**وأي داءٍ أدوأ من البخل ليس ذلك سيدكم**» قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ قال: «**سيدكم بشر بن البراء**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**الشح والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد**» [رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني]، وقال أيضًا: «**خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق**» [السلسلة الضعيفة:١١١٩].

الآثار: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما خلق الله جنة عدن، قال لها تزيني فتزينت ثم قال لها أظهري أنهارك، فأظهرت عين السلسبيل، وعين الكافور، وعين التسنيم. فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر، وأنهار العسل واللبن. ثم قال: أظهري سررك وحجالك وكراسيك، وحليك، وحللك، وحور عينك. فأظهرت. فنظر إليها فقال: تكلمي فقالت: طوبى لمن دخلني. فـ قال الله تعالى، وعزتي لا أسكنك بخيلًا.

وقالت أم البنين، أخت عمر بن عبد العزيز: أف للبخيل. لو كان البخل قميصًا ما لبسته ولو كان طريقًا ما سلكته. وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء، لكننا نتصبر. وقال محمد بن المنكدر: كان يقال إذا أراد الله بقوم شرًا أمرَّ

عليهم شرارهم، وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم. وقال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في خطبته إنه سيأتي على الناس زمان عضوض، يعض الموسر على ما في يده، ولم يؤمر بذلك. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال عبد الله بن عمرو، ولم يؤمر الشح أشد من البخل، لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يد غيره حتى يأخذه، ويشح بما في يده فيحبه والبخيل هو الذي يبخل بما في يده. وقال الشعبي: لا أدري أيهما أبعد غورًا في جهنم البخل أو الكذب وقيل ورد على أنو شروان حكيمُ الهند، وفيلسوفُ الروم. فقال للهندي تكلم. فقال خير الناس من أُلفي عند العطاء سخيًا، وعند الغضب وقورًا، وفي القول متأنيًا، وفي الرفعة متواضعًا، وعلى كل ذي رحم مشفقًا. وقام الرومي فقال: من كان بخيلًا ورث عدوه ماله، ومن قل شكره لم ينل النجح، وأهل الكذب مذمومون، وأهل النميمة يموتون فقراء، ومن لم يَرحم سُلِّط عليه من لا يرحمه. وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾ [يس: ٨]، قال البخل: «أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله، فهم لا يبصرون الهدى». وقال كعب: «ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يُناديان: اللهم عجل لممسك تلفًا، وعجل لمنفق خلفًا». وقال الأصمعي: «سمعت أعرابيًا وقد وصف رجلًا فقال: لقد صغر فلان في عيني، لعظم الدنيا في عينه، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه». وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا أرى أن أُعدِّل بخيلًا، لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه، خيفة من أن يُغبن، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة».

وقال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله ما استقصى كريم قط حقه». قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣]، وقال الجاحظ: «ما بقي من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء، وأكل القديد، وحك الجرب». وقال بشر بن الحارث: «البخيل لا غيبة له»، ومُدحت امرأة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: صوامة، قوامة، إلا أن فيها بخلًا. قال: «**فما خيرها إذًا**» [قلت: ليس جواز غيبة البخيل على إطلاقه].

وقال بشر: «النظر إلى البخيل يقسي القلب، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين»، وقال يحيى بن معاذ: «ما في القلب للأسخياء إلا حب، ولو كانوا فجارًا، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبرارًا»، وقال ابن المعتز: «أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه، ولقي يحيى بن زكريا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إبليس في صورته فقال له يا إبليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك، قال: أحب الناس إليّ المؤمن البخيل، وأبغض الناس إليّ الفاسق السخي أتخوَّف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله، ثم ولّى وهو يقول: لولا أنك يحيى لما أخبرتك» [قلتُ: حسنة التوحيد لا يعدلها شيء، ومن بخل بما زاد على الواجبات لم يأثم].

حكايات البخلاء

قيل: «كان بالبصرة رجل موسر بخيل، فدعاه بعض جيرانه، وقدم إليه طباهجة ببيض فأكل منها، فأكثر. وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه، ونزل به الكرب والموت فجعل يتلوى. فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب، فقال: لا بأس عليك، تقيأ ما أكلت فقال: هاه، أتقيأ طباهجة ببيض، الموت ولا ذلك».

ودعا بعضهم أخًا له، ولم يطعمه شيئًا. فحبسه إلى العصر، حتى اشتد جوعه، وأخذه مثل الجنون. فأخذ صاحب البيت العود، وقال له بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك؟ قال صوت المقلى.

ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلًا حتى يُقرم إليه. فإذا قرم إليه، أرسل غلامه، فاشترى له رأسًا. فأكله فقيل له: نراك لا تأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء فلِمَ تختار ذلك؟ قال: نعم، الرأس أعرف سعره، فآمن خيانة الغلام، ولا يستطيع أن يغبنني فيه وليس بلحم يطبخه الغلام، فيقدر أن يأكل منه، إن مس عينًا، أو أذنًا، أو خدًا، وقفتُ على ذلك. وآكل منه ألوانًاعينه لونًا، وأذنه لونًا ولسانه لونًا، وغلصمته لونًا، ودماغه لونًا، وأُكفي مؤنة طبخه. فقد اجتمعت لي فيه مرافق.

وخرج يومًا يريد الخليفة المهدي، فقالت له امرأة من أهله: مالي عليك إن رجعتَ بالجائزة؟ فقال: إن أُعطيتُ مائة ألف، أعطيتك درهمًا. فأُعطي ستين ألفًا، فأعطاها أربعة دوانق. واشترى مرة لحمًا بدرهم، فدعاه صديق له، فرد اللحم إلى القصّاب بنقصان دانق، وقال أكره الإسراف.

وكان للأعمش جار، وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول: لو دخلتَ فأكلتَ كسرة وملحًا، فيأبى عليه الأعمش، فعرض عليه ذات يومٍ فوافق جوع الأعمش، فقال: سِر بنا. فدخل منزله، فقرب إليه كسرة وملحًا. فجاء السائل، فقال له رب المنزل: بورك فيك فأعاد عليه المسألة، فقال له: بورك فيك، فلما سأل الثالثة، قال له: اذهب وإلا والله خرجتُ إليك بالعصا، قال فناداه الأعمش، وقال: اذهب، ويحك، فلا والله ما رأيتُ أحدًا أصدق مواعيد منه، هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح، فلا والله ما زادني عليهما.

بيان الإيثار وفضله:

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجات السخاء الإيثار. وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه. وإنما السخاء عبارة عن بَذْلك ما يحتاج إليه المحتاج، أو لغير محتاج. والبذل مع الحاجة أشد. وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة. فكم من بخيل يمسك المال ويمرض، فلا يتداوى. ويشتهي الشهوة، فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن ولو وجدها مجانًا لأكلها. فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة. وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه. فانظر ما بين الرجلين، فإن الأخلاق عطايا، يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء وقد أثنى الله على الصحابة - رضي الله عنهم - فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما شبع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أيام متوالية، حتى فارق الدنيا. ولو شئنا لشبعنا، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا» [رواه مسلم دون زيادة.. ولو شئنا .. إلى آخره]. ونزل برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ضيف فلم يجد عند أهله شيئًا، فدخل عليه رجل من الأنصار، فذهب بالضيف إلى أهله، ثم وضع بين يديه الطعام، وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يديه إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل، حتى أكل الضيف الطعام. فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: «**لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم**» ونزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] [متفق عليه]. فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى في إطلاق هذا التعبير نظر، والإيثار أعلى درجات السخاء. وكان ذلك من أدب رسول الله ﷺ، حتى سماه الله تعالى عظيمًا، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقال سهل بن عبد الله التستري: قال موسى عليه السلام: «يا رب، أرني بعض درجات محمد ﷺ وأمته. فقال: يا موسى، إنك لن تطيق ذلك، ولكن أريك منزلة من منازله، جليلة عظيمة، فضلته بها عليك، وعلى جميع خلقي. قال فكشف له عن ملكوت السموات، فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى. فقال: يا رب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ قال: بخلق اختصصته به من بينهم، وهو الإيثار يا موسى، لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتًا من عمره، إلا استحييت من محاسبته، وبوأته من جنتي حيث يشاء. وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قومٍ وفي غلام أسود يعمل فيه. إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب، ودنا من الغلام، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله، وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فلمَ آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت أن أشبع وهو جائع. وقال فما أنت صانع اليوم؟ قال أطوي يومي هذا. فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء؟ إن هذا الغلام لأسخى مني. فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات، فأعتق الغلام، ووهبه له.

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أُهدي إليّ رجل من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأس شاة، فقال: إن أخي كان أحوج مني إليه، فبعث به إليه. فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر، حتى تداوله سبعة أبيات، ورجع إلى الأول.

وعن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفسًا، وكانوا في قرية بقرب الري، ولهم أرغفة معدودة لم تُشبع جميعهم. فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام. فلما رفع، فإذا الطعام بحاله، ولم يأكل أحد منه شيئًا إيثارًا لصاحبه على نفسه. وروي أن شعبة جاءه سائل، وليس عنده شيء. فنزع خشبة من سقف بيته، فأعطاه ثم اعتذر إليه. وقال حذيفة العدوي، انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي، ومعي شيء من ماء؛ وأنا أقول إن كان به رمق سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به. فقلت: أسقيك؟ فأشار إليّ أن نعم. فإذا رجل يقول آه: فأشار ابن عمي إليّ أن أنطلق به إليه. فجئته، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال آه. فأشار هشام أنطلق به إليه. فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات، رحمة الله عليهم أجمعين.

وقال عباس بن دهقان، ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها، إلا بشر بن الحارث فإنه أتاه رجل في مرضه، فشكا إليه الحاجة، فنزع قميصه وأعطاه إياه، واستعار ثوبًا فمات فيه. وعن بعض الصوفية، قال: كنا بطرسوس، فاجتمعنا جماعة، وخرجنا إلى باب الجهاد، فتبعنا كلب من البلد. فلما بلغنا ظاهر الباب، إذا نحن بدابة ميتة، فصعدنا إلى موضع عال، وقعدنا. فلما نظر الكلب إلى الميتة، رجع إلى البلد، ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلبًا. فجاء إلى تلك الميتة، وقعد ناحية، ووقعت الكلاب في الميتة. فما زالت تأكلها، وذلك الكلب قاعد ينظر إليها، حتى أكلت الميتة. وبقي العظم، ورجعت الكلاب إلى البلد. فقام ذلك الكلب، وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقي عليها قليلًا، ثم أنصرف.

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار، وأحوال الأولياء، في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة هاهنا، وبالله التوفيق، وعليه التوكل فيما يرضيه عَزَّوَجَلَّ.

بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما:

لعلك تقول قد عرف بشواهد الشرع، أن البخل من المهلكات، ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلًا؟ وما من إنسان إلا هو يرى نفسه سخيًا، وربما يراه غير بخيلًا وقد يصدر فعل من إنسان، فيختلف فيه الناس، فيقول قوم: هذا بخل، ويقول آخرون: ليس هذا من البخل. وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حبًا للمال، ولأجله يحفظ المال ويمسكه فإن كان يصير بإمساك المال بخيلًا، فإذًا لا ينفك أحد عن البخل. وإذا كان الإمساك مطلقًا لا يوجب البخل، ولا معنى للبخل إلا الإمساك، فما البخل الذي يوجب الهلاك؟ وما حد السخاء الذي يستحق به العبد صفة السخاوة، وثوابها فنقول:

قد قال قائلون: حد البخل منع الواجب. فكل من أدى ما يجب عليه، فليس ببخيل وهذا غير كاف. فإن من يرد اللحم مثلًا إلى القصاب، والخبز للخباز، بنقصان حبة أو نصف حبة، فإنه يعد بخيلًا بالإتفاق. وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذي يفرضه القاضي، ثم يضايقهم في لقمة ازدادوها عليه، أو تمرة أكلوها من ماله، يُعدُّ بخيلًا. ومن كان بين يديه رغيف، فحضر من يظن أنه يأكل معه، فأخفاه عنه، عُدَّ بخيلًا.

وقال قائلون: البخيل هو الذي يستصعب العطية. وهو أيضًا قاصر، فإنه إن أُريد به أنه يستصعب كل عطية، فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة، كالحبة وما يقرب منها، ويستصعب ما فوق ذلك. وإن أريد به أنه يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا، وهو ما يستغرق جميع ماله، أو المال العظيم. فهذا لايوجب الحكم بالبخل وكذلك تكلموا في الجود، فقيل:الجود عطاء بلا مَنّ، وإسعاف من غير رويّة.

وقيل: الجود عطاء من غير مسألة، على رؤية التقليل، وقيل: الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن. وقيل: الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى، والعبد لله عزوجل، فيعطي عبد الله مال الله؟ على غير رؤية الفقر، وقيل: من أعطى البعض، وأبقى البعض، فهو صاحب سخاء. ومن بذل الأكثر، وأبقى لنفسه شيئًا، فهو صاحب جود. ومن قاسى الضر، وأثر غيره بالبلغة، فهو صاحب إيثار. ومن لم يبذل شيئًا، فهو صاحب بخل.

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل. بل نقول، المال خلق لحكمة ومقصود، وهو صلاحه لحاجات الخلق. ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ، ويَبذل حيث يجب البذل. فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير، وبينهما وسط وهو المحمود، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه، إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء. وقد قيل له: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧]. فالجود وسط بين الإسراف والإقتار، وبين البسط والقبض. وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه، ما لم يكن قلبه طيبًا به، غير منازع له فيه. فإن بذل في محل وجوب البذل، ونفسه تنازعه، وهو يصابرها فهو متسخ، وليس بسخي، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال، إلا من حيث يُراد المال له، وهو صرفه إلى ما يجب صرفة إليه، فإن قلت: فقد سار هذا موقوفًا على معرفة الواجب، فما الذي يجب بذله؟ فأقول: إن الواجب قسمان: واجب بالشرع، وواجب بالمروءة والعادة. والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع، ولا واجب المروءة فإن منع واحدًا منهما، فهو بخيل. ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل. كالذي يمنع أداء الزكاة، ويمنع عياله وأهله النفقة، أو يؤديها ولكنه يشق عليه، فإنه بخيل بالطبع، وإنما يتسخى بالتكلف. أو الذي يتيمم الخبيث من ماله، ولا

يطيب قلبه أن يعطي من أطيب ماله، أو من وسطه، فهذا كله بخل. وأما واجب المروءة، فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقِّرات. فإنّ ذلك مستقبَح، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فمن كَثُر ماله، استُقبح منه ما لا يُستقبح من الفقير من المضايقة. ويُستقبح من الرجل المضايقة مع أهله، وأقاربه، ومماليكه، ما لا يُستقبح مع الأجانب. ويُستقبح من الجار، ما لا يُستقبح مع البعيد. ويُستقبح في الضيافة من المضايقة، ما لا يُستقبح في المعاملة. فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة، في ضيافة، أو معاملة، وبما به المضايقة، من طعام، أو ثوب، إذ يُستقبح في الأطعمة ما لا يُستقبح في غيرها. ويُستقبح في شراء الكفن مثلًا، أو شراء الأضحية أوشراء خبز الصدقة، ما لا يُستقبح في غيره من المضايقة. وكذلك بمن معه المضايقة، من صديق، أو أخ، أو قريب، أو زوجة، أو ولد، أوأجنبي. وبمن منه المضايقة، من صبي أو امرآة،أو شيخ، أو شاب، أو عالم، أو جاهل، أو موسر، أو فقير.

فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع، إما بحكم الشرع، وإما بحكم المروءة. وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره. ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال. فإن صيانة الدين أهم من حفظ المال. فمانع الزكاة والنفقة بخيل، وصيانة المروءة أهم من حفظ المال. والمضايق في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه، هاتك ستر المروءة لحب المال، فهو بخيل. ثم تبقى درجة أخرى، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب، ويحفظ المروءة، ولكن معه مال كثير قد جمعه. ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين. فقد تقابل غرض حفظ المال، ليكون له عدة على نوائب الزمان، وغرض الثواب، ليكون رافعًا لدرجاته في الآخرة. وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس، وليس ببخل عند عوام الخلق. وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا، فيرون إمساكه لدفع نوائب الزمان مُهمًا، وربما يظهر عند العوام أيضًا سمة البخل عليه، إن كان في جواره محتاج فمنعه وقال: قد أدّيتُ الزكاة الواجبة، وليس عليّ غيرها، ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله، وباختلاف

شدة حاجة المحتاج، وصلاح دينه، واستحقاقه، فمن أدّى واجب الشرع، وواجب المروءة اللائقة به، فقد تبرأ من البخل.

نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء: ما لم يبذل زيادة على ذلك، لطلب الفضيلة، ونيل الدرجات فإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع، ولا تتوجه إليه الملامة في العادة فهو جواد، بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير. ودرجات ذلك لا تحصر. وبعض الناس أجود من بعض. فاصطناع المعروف وراء ما توحيه العادة والمروءة، هو الجود. ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفسٍ، ولا يكون عن طمع، ورجاء خدمة، أو مكافأة، أو شكر، أو ثناء. فإن مَنْ طمع في الشكر والثناء، فهو بيّاع، وليس بجواد. فإنه يشتري المدح بماله. والمدح لذيذ، وهو مقصود في نفسه. والجود هو بذل الشيء من غير عِوض، هذا هو الحقيقة ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى، وأما الآدمي فاسم الجود عليه مجاز، إذ لايبذل الشيء إلا لغرض ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة، أو اكتساب فضيلة الجود، وتطهير النفس عن رذالة البخل، فيسمى جوادًا. فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلًا، أو من ملامة الخلق، أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعَم عليه، فكل ذلك ليس من الجود، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث، وهي أعواض معجَّلة له عليه، فهو معتاض لا جواد، كما روي عن بعض المتعبدات، أنها وقفت على حبان بن هلال، وهو جالس مع أصحابه، فقالت: هل فيكم من أسأله عن مسألة؟ فقالوا لها: سلي عما شئت، وأشاروا إلى حبان بن هلال، فقالت: ما السخاء عندكم؟ قالوا: العطاء والبذل والإيثار. قالت: هذا السخاء في الدنيا؟ فما السخاء في الدين: قالوا: أن نعبد الله سبحانه، سخية بها أنفسنا، غير مكرهة قالت: فتريدون على ذلك أجرًا؟ قالوا: نعم، قالت: ولِمَ؟ قالوا: لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها. قالت: سبحان الله، فإذا أُعطيتم واحدة وأخذتم عشرة، فبأي شيء تسخيتم عليه؟ قالوا لها: فما السخاء عندك يرحمك الله؟ قالت: السخاء عندي، أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته، غير كارهين، لاتريدون على ذلك أجرًا، حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء ألا تستحيون من الله أن يطلع

على قلوبكم، فيعلم منها أنكم تريدون شيئًا بشيء؟ إن هذا في الدنيا لقبيح. وقالت بعض المتعبدات: أتحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط؟ قيل: ففيم؟ قالت: السخاء عندي في المُهَج. وقال المحاسبي: السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تُتلفها لله عَزَّوَجَلَّ، ويسخو قلبك ببذل مهجتك، وإهراق دمك لله تعالى، بسماحة من غير إكراه، ولا تريد بذلك ثوابًا عاجلًا ولا آجلًا. وإن كنت غير مستغن عن الثواب، ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء، بترك الاختيار على الله، حتى يكون مولاك هو الذي يفعل لك ما لا تُحسن أن تختاره لنفسك. [قلت: العبادة من أجل الثواب لا منقصة فيها، إذ منه رؤية الله وجواره في دار كرامته، وأما طلب نعيم الجنة المادي ليس إلَّا فنقصٌ بلا شك].

بيان علاج البخل:

اعلم أن البخل سببه حب المال. ولحب المال سببان: أحدهما - حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل. فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم، ربما أنه كان لايبخل بماله، إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم، أو في شهر، أو في سنة، قريب. وإن كان قصير الأمل، ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدر بقائهم كبقاء نفسه، فيمسك لأجلهم. ولذلك قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الولد مَبْخَلة مَجْبنة مَجْهلة**» [رواه أبو يعلى والبزار وضعفه الألباني]، فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر، وقلة الثقة بمجيء الرزق، قوي البخل لا محالة.

السبب الثاني - أن يحب عين المال. فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره، إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته، وتفضل آلاف، وهو شيخ بلا ولد، ومعه أموال كثيرة، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة، ولا بمداواة نفسه عند المرض، بل صار محبًا للدنانير، عاشقًا لها، يلتذ بوجودها في يده، وبقدرته عليها، فيكنزها تحت الأرض، وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة. وهذا مرض للقلب عظيم، عسير العلاج، لاسيما في كبر السن. وهو

مرض مزمن لا يُرجى علاجه. ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصًا، فأحب رسوله لنفسه، ثم نسي محبوبه، واشتغل برسوله. فإن الدنانير رسول يبلِّغ إلى الحاجات. فصارت محبوبة لذلك، لأن الموصِّل إلى اللذيذ لذيذ. ثم قد تُنسى الحاجات، ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه، وهو غاية الضلال. بل من رأى بينه وبين الحجر فرقًا فهو جاهل، إلا من حيث قضاء حاجته به. فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة.

فهذه أسباب حب المال وإنما علاج كل علة بمضادة سببها. فتُعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير، وبالصبر. وتُعالِج طول الأمل بكثرة ذكر الموت، والنظر في موت الأقران، وطول تعبهم في جمع المال، وضياعه بعدهم. وتُعالِج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالًا، وحاله أحسن ممن ورث. وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده، يريد أن يترك ولده بخير، وينقلب هو إلى شر. وأن ولده إن كان تقيًا صالحًا فالله كافيه، وإن كان فاسقًا فيستعين بماله على المعصية، وترجع مظلمته إليه. ويعالج أيضًا قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل، ومدح السخاء، وما توعّد الله به على البخل من العقاب العظيم ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء، ونفرة الطبع عنهم، واستقباحهم له. فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل كل بخيل من أصحابه. فيعلم أنه مُستثقَل ومُستقذَر في قلوب الناس، مثل سائر البخلاء في قلبه. ويعالج أيضًا قلبه بأن التفكر في مقاصد المال، وأنه لماذا خلق. ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقي يدخره لنفسه في الآخرة، بأن يحصل على ثواب بذله. فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم. فإذا عرف بنور البصيرة، أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلًا. فإن تحركت الشهوة، فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف، فإن الشيطان يعده الفقر، ويخوفه ويصده عنه. حكي أن أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الخلاء، فدعا تلميذًا له،

وقال انزع عني القميص وادفعه إلى فلان، فقال: هلا صبرت حتى تخرج؟ قال: لم آمن على نفسي أن تتغير، وكان قد خطر لي بذله.

ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفًا. كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق، بالسفر عن مستقره، حتى إذا سافر وفارق تكلّفًا، وصبرعنه مدة تسلَّى عنه قلبه. فكذلك الذي يريد علاجه البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفًا بأن يبذله بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له. [قلتُ: هذا كلام غير صحيح] ومن لطائف الحيل فيه، أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعًا في حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل، واكتسب بها خبث الرياء. ولكن ينعطف بعد ذلك الرياء ويزيله بعلاجه ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال، كما قد يُسلَّى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها. لا ليُخلَّى واللعب ولكن لينفك عن الثدي إليه، ثم يُنقل عنه إلى غيره. فكذلك هذه الصفات الخبيثة، ينبغي أن يُسلَّط بعضها على بعض، كما تُسلَّط الشهوة على الغضب، وتُكسر سورته بها. ويُسلَّط الغضب على الشهوة، وتُكسر رعونتها به. إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء، فيبدِّل الأقوى بالأضعف. فإن كان الجاه محبوبًا عنده كالمال، فلا فائدة فيه، فإنه يقلع من علة، ويزيد في أخرى مثلها. إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء. فبذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه. فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء، فينبغي أن يبذل، فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه [قلتُ: قد لا يخلو كلامه هذا من نظرٍ، والله أعلم].

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض، ما يقال: إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودًا ثم يأكل بعض الديدان البعض، حتى يقل عددها،ثم يأكل بعضها بعضًا، حتى ترجع إلى اثنتين، قويتين، عظيمتين. ثم لا تزالان تتقاتلان، إلى أن تغلب أحداهما

الأخرى، فتأكلها، وتسمن بها. ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها، إلى أن تموت [قلتُ: الله أعلم بصحة ذلك]، فكذلك هذه الصفات الخبيثة، يمكن أن يُسلِّط بعضها على بعض، حتى يقمعها، ويجعل الأضعف قوتًا للأقوى، إلى أن لا يبقى إلا واحدة. ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة، وهو منع القوت عنها ومنع القوت عن الصفات، أن لا يعمل بمقتضاها، فإنها تقتضي لا محالة أعمالًا، وإذا خولفت خمدت الصفات وماتت. مثل البخل، فإنه يقتضي إمساك المال. فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى، ماتت صفة البخل، وصار البذل طبعًا وسقط التعب فيه. فإن علاج البخل بعلم وعمل. فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل، وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف. ولكن قد يقوى البخل، بحيث يعمي ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه. وإذا لم تتحقق المعرفة، لم تتحرك الرغبة، فلم يتيسر العمل. فتبقى العلة مزمنة، كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله، فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت. وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية، في معالجة علة البخل في المريدين، أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم. وكان إذ توهم في مريد فرحه بزاويته وما فيها، نقله إلى زاوية غيرها ونقل زاوية غيره إليه. وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسة أو سجادة يفرح بها، يأمره بتسليمها إلى غيره، ويلبسه ثوبًا خَلِقًا، لا يميل إليه قلبه. فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا. فمن لم يسلك هذا السبيل، أنس بالدنيا وأحبها. فإن كان له ألف متاع، كان له ألف محبوب ولذلك إذا سُرق كل واحد منه، ألَمَّتْ به مصيبة بقدر حبه له. فإذا مات نزل به ألف مصيبة دُفعةً واحدة، لأنه كان يحب الكل، وقد سُلب عنه. بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك. وقد حُمل إلى بعض الملوك قدحٌ من فيروزج، مرصع بالجواهر، لم ير له نظير، ففرح الملك بذلك فرحًا شديدًا، فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا؟ قال أراه مصيبة أو فقرًا، قال كيف؟ قال: إن كُسر كان مصيبة لاجبر لها، وإن سُرِق صِرتَ فقيرًا إليه، ولم تجد مثله وقد كنتَ قبل أن يُحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر. ثم اتفق يومًا أن كُسر أو سُرِق وعَظمت مصيبة الملك عليه، فقال صدق الحكيم،

ليته لم يُحمل إلينا، وهذا شأن جميع أسباب الدنيا. فإن الدنيا عدوّة لأعداء الله، إذ تسوقهم إلى النار. وعدوّة أولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها. وعدوّة لله إذ تقطع طريقه على عباده، وعدوّة نفسها فإنها تأكل نفسها، فإنّ المال لا يُحفظ إلا بالخزائن والحراس، والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال، وهو بذل الدراهم والدنانير، فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته، حتى يَفنى، ومن عرف آفة المال لم يأنس به، ولم يفرح به، ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته. ومن قَنع بقدر الحاجة فلا يَبخل، لأن ما أمسكه لحاجته فليس ببخل، وما لا يحتاج إليه فلايتعب نفسه بحفظه، فيبذله. بل هو كالماء على شط الدجلة، إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة.

بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله:

اعلم أن المال كما وصفناه، خير من وجه، وشر من وجه. ومثاله مثال حيّة يؤخذ سمُّها ويستخرج منها الترياق. ويأخذها الغافل، فيقتله سُمّها من حيث لا يدري. ولا يخلو أحد عن سُمّ المال، إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

الأولى - أن يعرف مقصود المال، وأنه لماذا خُلق، وأنه لِمَ يُحتاج إليه، حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه.

الثانية - أن يراعي جهة دخل المال، فيجتنب الحرام المحض، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ويجتنب الجهات المكروهة، القادحة في المروءة، كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة، وكالسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة، وما يجري مجراه.

الثالثة - في المقدار الذي يكتسبه، فلا يستكثر منه ولا يستقل، بل القدر الواجب. ومعياره الحاجة، والحاجة ملبس، ومسكن، ومطعم. ولكل واحد ثلاث درجات، أدنى وأوسط وأعلى، وما دام مائلًا إلى جانب القلة ومقتربًا من حد الضرورة، كان حقًا ويجيء من جملة المحققين. وإن جاوز ذلك، وقع في هاوية لا آخر لعمقها. وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد.

الرابعة - أن يراعي جهة المخرج، ويقتصد في الإنفاق، غير مبذِّر ولا مقتر كما ذكرناه، فيضع ما اكتسبه من حِلِّه في حقه، ولا يضعه في غير حقه، فإن الإثم في الأخذ من غير حقه،والوضع في غير حقه، سواء.

الخامسة - أن يُصلح نيته في الأخذ؛ والترك، والإنفاق، والإمساك، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة. ويترك ما يترك زهدًا فيه. واستحقارًا له. إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال. ولذلك قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لو أن رجلًا أخذ جميع ما في الأرض، وأراد به وجه الله تعالى، فهو زاهد. ولو أنه ترك الجميع، ولم يُرِدْ به وجه الله تعالى، فليس بزاهد. فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله، مقصورة على عبادة، أو ما يعين على العبادة فإن أبعد الحركات عن العبادة، الأكل وقضاء الحاجة، وهما معينان على العبادة. فإذا كان ذلك قصدك بهما، صار ذلك عبادة في حقك. وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما يحفظك، من قميص وإزار وفراش وآنية. لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين. وما فضل من الحاجة، ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله، ولا يمنعه منه عند حاجته. فمن فعل ذلك، فهو الذي أخذ من حَيَّة المال جوهرها وترياقها، واتقى سُمّها، فلا تضره كثرة المال. ولكن لايتأتى ذلك إلا لمن رَسَخَ في الدين قَدمُه، وعَظم فيه علمه، والعامي إذا تَشبّه بالعالم في الاستكثار من المال، وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة، شَابَه الصبي الذي يرى الحاذق يأخذ الحية، ويتصرف فيها، فيُخرِج ترياقها، فيقتدي به، ويظن أنّه أخذها متستحسنًا صورتها وشكلها، ومستلينًا جلدها، فيأخذها اقتداء به، فتقتله في الحال. إلا أن قتيل الحية يدري أنه قتيل، وقتيل المال قد لا يعرف. وقد شُبِّهت الدنيا بالحية. فقيل:

هي دنيا كحية تنفث السم.. وإن كانت المَجَسّةُ [المس] لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير، في تخطي قمم الجبال، وأطراف البحار، والطرق المشوكة، فمحال أن يتشبه العامي بالعالم الكامل في تناول المال.